https://doi.org/10.54809/jkss.vi1.211
گۆڤاری کوردستانیی بۆ لێکۆڵینەوەی ستراتیجیی
Copyright © Open access article with CC BY-NC-ND 4.0

اختيار الشخصيات في كتاب طوق الحمامة

م.م سروه عبد المجيد محمود
srwa.mahmad@univsul.edu.iq

أ.م.د إسماعيل إبراهيم مصطفى
ismaeel.mustafa@univsul.edu.iq

قسم اللغة العربية- كلية اللغات- جامعة السليمانية

لملخص:

يُعزى كتاب طوق الحمامة لابن حزم إلى تجارب خاصة وموهبة حدسية ترجمت إلى ألفاظ تمثلت في صورة فنية لعلامات الحب وأعراضه وكل ما يمت للحب بصلة، معقبا إياها بقصة عاشها أحداثها بنفسه أو نقلها عن ثقات، ويكون فيها من أكثر الناس تجاوبا مع إحساسات الآخرين ومشاعرهم. ولأنه كان جزءا من المجتمع، فمن البديهي أن يلتزم بما هو مقبول ثقافيا، ووجب أن يكون فكره ونتاجه خاضعين للمحيط الأيدولوجي المحيط به لوجود نظام معقد من الارتباطات والتأثرات المتبادلة في عملية انتاج الأدب، لكن ابن حزم في انتخابه لشخصياته لم يخضع للموروث الثقافي بل أسس لمهمشات المجتمع ومغيباتها فضلا عن الجانب المظلم من الشخصيات العامة.

الكلمات المفتاحية: ابن حزم، طوق الحمامة، الشخصيات

Recieved: 1/10/2022
Accepted: 3/11/2023

E-ISSN: 2790525-X
P-ISSN: 27905268

المقدمة

تُعد الأعمال القصصية و الروائية إحدى الأعمال التي تحاكي الواقع وتخبر عن أحداثها عبر سرد حكائي متمايز، وتُعد الشخصية مدار الأمر في أغلب النصوص السردية، إذ لا يمكن أن يكون هناك قص أو سرد مالم يتمحور حول شخصية ما، ومن النقاد من قسم الشخصيات طبقا إلى البساطة والتعقيد، ومنهم من وسم الشخصيات استنادا إلى الأدوار الموكلة إليها، فهي شخصيات رئيسية وأخرى ثانوية، فيما كانت الفكرة محل اهتمام الفريق الثالث الذي قسمها إلى شخصيات ثابتة ونامية. وسواء أاضطلعت الشخصية بدور إيجابي أو سلبي، رئيسي أو ثانوي فهي على درجة من الارتباط حد الالتصاق بالحدث، فهي التي تنهض بالأحداث عبر المسار القصصي أو الروائي، مما أمكن وصف الشخصيات في الأعمال الأدبية بأنها بؤرة الحدث ونقطة استقطابه، إذ يعبر الكاتب من خلالها عن شريحة أو طبقة سائدة في المجتمع.

وقد كان المجتمع الأندلسي على عهد ابن مجتمعا مترفا ذاع فيه الحب وانتشرت قصص العشق لأسباب عدة منها تحسن الواقع الاجتماعي ورغد العيش، ، فضلا عن ابتعاد الناس عامة والحكام بشكل خاص عن الدين وتعاليمه، (للاستزادة انظر مكي، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ص٤٨ وما بعدها)، وكان لابن حزم من ذلك نصيب، فقد عاش تجربة الحب غير مرة وأطلعنا على مغامراته وصولاته الغرامية في الطوق، وقد اتبع السنة المحمدية وأرجع سبب الحب إلى تآلف الأرواح وتوافقها. وإضافة إلى قصصه ومغامراته الغرامية،فقد تطرق إلى شخصيات أخرى عديدة تنتمي لطبقات اجتماعية مختلفة وأماط النقاب عن بعض جوانبها المجهولة، ولم تكن شخصياته من العامة فقط بل تطرق لمن لم يكن متاحا التطرق إليهم، فشخصياته التي انتخبها مقسمة بين العوام وأصحاب السلطة ورجالات الدين أيضا.

وسبب اختيارنا للموضوع هو معرفة مدى استجابة ابن حزم لإملاءات المؤسسة الثقافية في اختيار شخصياته، وهل خضع للموروث الثقافي أم أسس لما لم يكن متاحا للنظر فيه من حياة تلك الشخصيات؟

والبحث مقسم على ثلاث مطالب، ندرس في المطلب الأول الشخصيات التي ذكرها ابن حزم وكيف جعل الهامش مركزا في حياة تلك الشخصيات، أما المطلب الثاني ففيه أبعاد الشخصية في الأعمال السردية مع نماذج من شخصيات طوق الحمامة، وكانت المعطيات الثقافية لاختيار تلك الشخصيات من نصيب المطلب الثالث.

المطلب الأول: الشخصيات التي ذكرها ابن حزم

تقييم الشخصية على إنها من أهم عناصر السرد الحكائي أو الروائي لاعتماد الكاتب عليها في تجسيد الأدوار وسرد الأخبار بحبكة فنية متقنة « وحدود رسم الشخصية القصصية لا تقتصر على النطاق الذي تجول فيه الملاحظة المباشرة، أو على المعلومات التي تنحدر إلى الكاتب من مصادره الثانوية، بل تعتمد أيضا اعتمادا كبيرا على إدراكه لإمكانيات الشخصية الإنسانية ولطاقاتها الكامنة» (نجم: ١٩٥٥، ٨٨).

و ابن حزم كما هو معروف إمام مذهب وفقيه، وهو في الوقت ذاته صاحب كتاب أدبي إليه يشار بالبنان عند الحديث عن الحب والمحبين، جمع بين محبة الفقه والدين وأولى بهما عناية بقدر مشترك فلم يكن يُغلب أحدهما على الآخر، بل كان بين ذلك قواما. يقول في باب الوصل: «ولقد حدثني ثقة من إخواني جليل من أهل البيوتات أنه كان علق في صباه جارية كانت في بعض دور آله، وكان ممنوعًا منها، فهام عقلُه بها. قال لي: فتنزهنا يومًا إلى بعض ضياعنا بالسهلة غربيَّ قرطبة مع بعض أعمامي، فتمشَّينا في البساتين، وأُبعدنا عن المنازل، وانبسطنا على الأنهار، إلى أن غيَّمت السماء وأقبل الغيث، فلم يكن بالحضرة من الغطاء ما يكفي الجميع. قال: فأمر عمي ببعض

الأغطية فأُلقي عليَّ، وأمرها بالاكتنان معي، فظن بما شئت من التمكُّن على أعين الملأ وهم لا يشعرون، ويا لك من جمع كخَلاء، واحتفال كانفراد! قال لي: فوالله لا نسيت ذلك اليوم أبدًا، ولعهدي به وهو يحدثني بهذا الحديث وأعضاؤه كلها تضحك، وهو يهتز فرحًا على بُعد العهد وامتداد الزمان». (ابن حزم، ١٨٨-١٨٩).

قدم ابن حزم في تعقيبه بوجيز الكلمات بحورا من المعاني وصورا تكاد تُرى بالعين، فنحن إذ نقرأ قوله «ولعهدي به وهو يحدثني بهذا الحديث وأعضاؤه كلها تضحك، وهو يهتز فرحًا على بُعد العهد وامتداد الزمان» يتحرك في دماغنا تفاعل ينشط معه مركز الضحك، وقد نبدأ بالابتسامة تلقائيا فالضحك عدوى ووباء غير مؤذٍ ينتقل بين الأشخاص، فنشارك صديق ابن حزم في مشاعره نتيجة للصورة الرائعة التي نقل لنا بها تلك المشاعر، فلم تقتصر الضحكة ولا الفرحة على الشفاه بل نسبها مجازا إلى الأعضاء كلها مبالغة في بيان مشاعره، نتج عنه انتقال الفرح والشعور بالنشوة وغمرة السعادة إلى القارئ فتقوم هذه المشاعر في الذهن ونحن نتلمس صورة الرجل العاشق الذي يهتز فرحا، والمعلوم أن الرجل في معظم المجتمعات يحجم عن الضحك إثباتاً لسلطته، وتضحك المرأة أكثر، من باب الاسترضاء، فلعله أراد بتلك الكلمات أن يعبر عن درجة السعادة التي شعر بها صديقه حتى ضحك وأهتز فرحا وهو الرجل الفحل الذي لا يضحك بسهولة ولا لكل أمر.

وهنا يبرز شيء آخر بالنسبة إلى هذا الخبر المختزل في أسطر قليلة، هو وجود عدة شخصيات فيه كلها تشارك في خلق الحدث بدءا بالصديق ثم الجارية والأعمام وصولا إلى الملأ، وتشاكل هذه الشخصيات عنصرا أساسيا من عناصر البناء السردي للخبر المروي ما يدل على مركزية الشخصيات وبروزها في أخبار طوق الحمامة مقارنة بباقي العناصر السردية الأخرى (الحدث والزمان والمكان).

وقد انتخب ابن حزم شخصياته بطرائق ثلاثة، كانت الأولى من نصيب شخصيات حقيقين من محيطه الذي يعيش فيه وعلى صلة به، والثانية لأشخاص حقيقين تناثرت أخبارهم وتداولت على ألسنة الناس أما الثالثة فهي مما أخبره عنهم الخواص ممن يثق بهم ، وأمكن تقسيم شخصيات كتابه كالآتي:

في الكتاب التفاتة فريدة للجوانب العاطفية في حياة الشخصيات السياسية ورجالات الدولة وهي حياة الظل التي لم تكن متاحا للنظر فيه من قبل العوام، فمثلا قد امتلأت كتب التاريخ بسرد الجوانب السياسية والدينية والثقافية في حياة الخلفاء دون النظر في الجوانب العاطفية والعلاقات الغرامية لهم، لما فيه من عدم مقبولية لدى العامة من جهة ولما قد تحتويه من تفاصيل تتنافى والهالة التي أحيطت بشخصية الخليفة القدوة كما يجب أن تكون، من جهة أخرى بحسب السائد الثقافي، وهو بذلك الطرح قد أصّل لأنطولوجيا الاختلاف والانتفاء في الكتابة الأدبية الأندلسية وأزاح الستار عن تلك الجوانب وهو أمر غير مألوف.

فابن حزم الذي صال وجال في مهمشات المجتمع، في مناطقها المعتمة، في هوامشها، يرتحل للرقعة المسكوت عنها حياة الشخصيات البارزة ويتحدث عن علاقاتهم العاطفية ومغامراتهم الليلية ولوعات قلوبهم، وهو شيء لم يكن مقبولا اجتماعيا ويخشى الكثير التقرب منه لذا ظل هذا الوجه إلى حد كبير بعيدا عن الدرس، وهذا كان سببا داعيا كي يرتحل شطرها ابن حزم، فالكتاب لا يقدم صورة الفقهاء ولا الخلفاء ولا باقي الشخصيات العامة ضمن الاشتراطات العرفية للمجتمع بل يقدم فيه الوجه الآخر لهؤلاء، الوجه الثائر ضد المؤسسة، وعلى غرار فقيهنا لو افترضنا جدالا وقلنا: إن سأل سائل لم يفعل ذلك؟ لكان الجواب: لأنه ليس الابداع عند ابن حزم الالتزام بأطر قالب معين، أو الاشتغال ضمن نطاق طريقة مضبوطة المعالم، فضلا عن أنه لم يكن ذلك الشاعر أو الأديب الذي يجيد كسب عطف ممدوحيه من الخلفاء والوجهاء، فطبيعته العصبية الساخطة وأفكاره المغايرة كانتا حاجزين يحولان بينه وبين التقرب إليهم، نتج عنه جفاف العلاقة التي جمعته بهم، وهذا شرط ثقافي يجب توفره في أي

ظاهـرة تتحـول إلى معلـم ثقـافي يسـتحق الدراسـة والوقـوف عليـه.

ولنقتبـس مثـالا مـما أورده لنـا في ذلـك الجانـب، يقـول: « وأحـدث مـن ذلـك مـا شـاهدناه بالأمـس مـن كلـف المظفـر بـن عبـد الملـك بـن أبي عامـر بواجـد، بنـت رجـل مـن الجنانـين حتـى حملـه حبهـا أن يتزوجهـا، وهـي التـي خلـف عليهـا بعـد فنـاء العامـر بـن الوزيـر عبـد اللـه بـن مسـلمة، ثـم تزوجهـا بعـد قتلـه رجـل مـن رؤسـاء البربـر». (ابـن حـزم ٩٢). والملاحظ في القصـة أنهـا عـن الحاجـب عبـد الملـك المظفـر بـن المنصـور الـذي خلـف أبـاه المنصـور في الحجابـة وكان صاحـب السـلطة الحقيقيـة للبـلاد بسـبب ضعـف الخليفـة الهشـام كـما أسـلفنا في مـا سـبق، وقـد تميّـزوا في فـترة حكمهـم بأنهـم كانـوا أشـداء لايتوانـون عـن فعـل أي شيء للحفـاظ عـلى طاعـة النـاس وموالاتهـم لهـم ولاحتفاظهـم بصورتهـم المثاليـة، وابـن حـزم يُـدرك مغبـة التقـرب مـن تلـك الجوانـب، لكـن مـا يبهضهـا مـن بـرم بهـذه الحيـاة التـي يحياهـا، فأودعهـا فقيهنـا مـتن رسـالته وحـاول مـلأ تلـك الشـقوق والفجـوات حـول حيـاة الخلفـاء والقـادة.

فضـلا عـن ذلـك كلـه لم يكـن ليفضـح مـن يُخـشى عليـه أو مـن لم يـرض بذكـر اسـمه» وبحسـبي أن اسـمي مـن لا ضرر في تسـميته، ولا يلحقنـا والمسـمى عيـب في ذكـره، إمـا لاشـتهار لا يُغنـي عنـه الطـي وتـرك التبيـين، وإمـا لـرضى مـن المخـبر عنـه بظهـور خـبره وقلـة إنـكار منـه لنقلـه» (ابـن حـزم،٨٧)، فهـو يراعـي الآداب العامـة والخصوصيـة الشـخصية وإلا ففـي جعبتـه الكثـير مـن الأخبـار عـن القـادة والخلفـاء. وهنـا يجـب أن نقـف عنـد هـذا الموقـف وهـو عـدم المبالغـة في الخـروج عـن مقـررات المؤسسـة الثقافيـة، فهـو وإن كان بصـدد التأسـيس لظاهـرة مهمشـة في المجتمـع، إلا أنـه يظهـر في صـورة المهـادِن والمسـاوم مـع ذلـك المجتمـع.إذاً، هـو يراعـي مـا يتوجـب مراعاتـه مـن أخبـار الخلفـاء الأمويـين لإيمانـه بقضيتهـم فهـو يـرى فيهـم قـدوة لا يجـب أن تتشـوه صورتهـم أمـام الملأ.

لم يسـلم الفقهـاء ولا رجـال الديـن والمتحدثـين باسـمه مـن سرد قصصهـم وأخبارهـم، ولعلنـا نبـدأ بـه، فهـو الوزيـر السـابق والفقيـه المنـاصر لدينـه والمتحـدث باسـم الكتـاب والسـنة، يطلعنـا عـلى قصـص غرامـه وحكاياتـه العاطفيـة، فتوفـرت عنـده امكانـات التجـاوز التـي كان سـباقا إليهـا فتحـرر مـن أسر النسـج عـلى منـوال جاهـز ، وعندمـا أومـأ إليـه الحـب تبعـه، وتعلـق قلبـه بجاريتـه، يقـول عنهـا» وعنـي أخـبرك أني احببـت في صبـاي جاريـة لي شـقراء الشـعر، فـما استحسـنت مـن ذلـك الوقـت سـوداء الشـعر، ولـو أنـه عـلى الشـمس أو عـلى صـورة الحسـن نفسـه» (ابـن حـزم، ١٣٠)، إذا فقـد تطـرق إلى مـا لم يكـن مقبـولا التطـرق إليـه مـن حيـاة الفقهـاء، فالفقيـه يعنـي الديـن والالتـزام ولا سـبيل لهـوى القلـوب وميلهـا مـن سـيرهم الذاتيـة وأخبارهـم، وهـو بذلـك زعـزع المركزيـات وزرع الشـك والريبـة في طياتهـا التـي تقـادم عليهـا الزمـن حتـى أضحـت مـن المسـلمات. وهـو يبـدأ بنفسـه كنـوع مـن الاعـتراف الـذاتي أمـام المؤسسـة الثقافيـة ليجـلّي الخفايـا ويجعـل مـن الحالـة الذاتيـة موضوعـا عامـا متاحـا.

وتفسـير هـذه الحالـة والتعامـل السـابق مـع الخلفـاء وولاة الأمـور في نظرنـا هـو أنـه يريـد أن ينـزع القداسـة مـن الذيـن وضـع المجتمـع حولهـم هالـة معينـة، إمـا لمنزلتهـم السياسـية أو الدينيـة ليفـرق بـين ماهـو إنسـاني ذاتي ومـا هـو ثقـافي عـام، لأن الإنسـان إنسـان أينـما كان وفي أي منزلـة كان، لكـن عندمـا يوجـد هـذا الإنسـان داخـل ثقافـة معينـة يجمـع الجميـع عـلى إعطائـه صفـة معينـة وتميـزا يكتسـب هـذه الهالـة، وعندمـا نمـزق هـذا الغـلاف الثقـافي حـول هـذه الظواهـر والشـخصيات نحصـل عـلى الجوهـر الموحـد لهـا، ولا يحـدث هـذا إلا مـن خـلال الحفـر في ركام الثقافـة المؤسسـة.

وفي موضـع آخـر يذهـب أكـثر مـن هـذا، ولا يكتفـي بالجانـب المقبـول مـن الحـب الصـادق، بـل يلتفـت إلى تغلـب الهـوى عـلى العقـل والقيـام بالشـنيع مـن الأعـمال اتباعـا للهـوى، يقـول: « وأشـنع مـن هـذا أنـه كانـت لسـعيد بـن منـذر بـن سـعيد صاحـب الصـلاة في جامـع قرطبـة أيـام حكـم المسـتنصر باللـه رحمـه اللـه جاريـة يحبهـا حبـا شـديدا، فعـرض عليهـا أن يعتقهـا ويتزوجهـا، فقالـت لـه سـاخرة بـه، وكان عظيـم اللحيـة: إن لحيتـك أستبشـع عظمهـا، فـإن حذفـت منهـا كان مـا

ترغبه، فأعمل الجملين فيها حتى لطفت، ثم دعا بجماعة شهود وأشهدهم على عتقها، ثم خطبها إلى نفسه فلم ترض به، وكان من جملة من حضر أخوه حكم بن منذر، فقال لمن حضر: اعرض عليها أني أخطبها أنا، ففعل فأجابت إليه، فتزوجها في ذلك المجلس بعينه ورضي بهذا العار على ورعه ونسكه واجتهاده..... وحكم المذكور هو رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم وناسكهم» (ابن حزم، ١٥٦-١٥٧).

كان ابداعه قرين التحولات الاجتماعية، إذ حاول اخراج الحب بالنسبة للشخصيات العامة من دائرة اللاوجود ومنحها هويتها وبصمتها الخاصة، مما مكنها من احتلال أفق ثقافي رحب على الساحة الأندلسية، فأفق الكتابة صار أوسع وأرحب متهيأ لكل المستجدات التي تطرأ على المجتمع وأكثر قابلية على الاحتواء، فكان ينأى بنفسه عن الأخذ بأي مسلمة ثقافية، ويعتمد الوعي وممارسة العمل الفكري الصحيح، وقد دفع ثمن ذلك كبيرا جراء سوء الفهم التي تعرضت له أفكاره لأنه حفر في المنطقة المحظورة، فالأندلسيون من وجهة عامة كانوا يعادون كل جديد عليهم فثاروا على من خالف طريقتهم أو سار على غير منهجهم (عباس: ط٨، ٣٠-٣١).

تحدث عن الحب الشاذ المنبوذ في كل المجتمعات على حد سواء، فحب رجل لرجل آخر من الكبائر التي يعاقب عليها الدين بالقتل وهو عمل قوم أهلكهم الله تعالى بأن قلب قريتهم وجعل عاليها سافلها ورافق ذلك صيحة عظيمة كما قص لنا ذلك في القرآن الكريم، ومن ذلك قصة النظام رأس المعتزلة، فهو من جهة شخصية دينية ارتبط اسمه بفرقة دينية لم يكن يرد من أخباره إلا الجانب الديني، ومن جهة فهو حب رجل لرجل وهو الحب المهمش اجتماعيا وثقافيا، ومثال ذلك ما أورده عن أحد الكتاب وكيف أنه «امتحن بمحبة أسلم بن عبد العزيز، أخي الحاجب هاشم بن عبد العزيز، وكان أسلم غاية في الجمال، حتى أضجره لما به، وأوقعه في أسباب المنية، وكان أسلم كثير الإلمام به، والزيارة له، ولا علم له بأنه أصل دائه، إلى أن توفي أسفا ودنفا. قال المخبر فأخبرت أسلم بعد وفاته بسبب علته وموته فتأسف وقال: هلا أعلمتني؟ فقلت: ولم؟ قال: كنت والله أزيد في صلته وما أكاد أفارقه، فما علي في ذلك من ضرر. (ابن حزم، ٢٥٨). ما يُلفت الانتباه في القصة السابقة نقطتان: الأولى أن ابن حزم يتحدث عن ابن قزمان بقوله امتحن وكأنه يُعزي ذلك إلى أن حبه الشاذ ليس من عمل نفسه، أو أن الله تعالى ابتلاه به، والأعجب أن يخرج الكلام من فم أنبرى للدفاع عن تعاليم الدين الحنيف، وهل الحب الشاذ إلا من عمل الشيطان واتباع هوى النفس الأمارة بالسوء؟ وأما الثانية: فهو تقبل أسلم لموضوع العشق الشاذ وعدم نفوره، بل تأسفه عليه وعلى عدم مكوثه معه أكثر. ويأتي كل هذا من خلال التأسيس لموضوع الحب بكل تفاصيله وأنواعه، ولو لم تكن هذه الأخبار موجودة في الكتاب لصار ناقصا غير جديلا بأن يُنظر إليه كظاهرة ثقافية تستحق الدراسة.

ولحب النساء من كتاب ابن حزم نصيب، فنراها تشارك في الحياة الاجتماعية والثقافية، أمّا اشتراكها الاجتماعي في الكتاب فكان لوظائف عدة شغلتها فضلا عن معرفة الناس لها عن طريق الشعر والشعراء؛ إذ تقربت إلى الشعراء مستمعةً وراويةً، وتقربوا إليها لتكونَ مادة خصبة لأشعارهم ويسرد لنا ابن حزم قصة صنفين من النساء: الأول: نساء ذوات الحسب والنسب أو من بنات الأشراف كما في قصة من أحب من نظرة واحدة قائلا: « إني لأعلم فتًى من أبناء الكُتَّاب ورأته امرأة سرية النشأة، عالية المنصب، غليظة الحجاب، وهو مُجتاز، ورأته في موضع تَطلَّعَ منه كان في منزلها، فعلقتْه وعَلقها، وتهاديا المراسلة زمانًا على أرق من حد السيف» (ابن حزم، ١٢٣).

القصة السابقة تخالف المعهود وتفكك الجمود، فمن الشائع عند الحديث عن الحب والعشق أن يكون المبادر رجلا لأن النساء يغلب عليهن الحياء، لكن ابن حزم أسس لخطاب معتد بذاته، وهي هوية المرأة مقابل هوية الآخر وهي الهوية الذكورية التي هي الهوية السائدة ثقافيا بمغذياتها الاجتماعية والسياسية والدينية، فأسرد لنا قصص عشق لنساء لم تمنعهن هويتهن الجنسية من الاعتراف بمكامن قلوبهن.

وشيء آخر في غاية الأهمية بالنسبة إلى موضوع التأسيس والتهميش وهو قوله» وتهاديا المراسلة زمانا على أرق من حد السيف»، يدلنا هذا القول إلى حدود المؤسسة الثقافية وطغيان عاداتها وتقاليدها المفروضة على الأفراد مما جعل الخروج منه تعرضا للموت خصوصا في موضوع كهذا، لكن مع هذا نرى ممارسة خفية له في هامش ضئيل ومساحة ضيقة، ويأتي ابن حزم يتلقف هذا الهامش ويبرزه للعيان.

والصنف الثاني: قصص الجواري والإماء المملوكات، وله في سيرتهن باع طويل، ومن ذلك في خضم حديثه عن صاحبه ابن أبي عامر وتعلق النساء بحبه يقول: «وأنا اعرف جارية منهن كانت تسمى عفراء، عهدي بها لا تتستر بمحبته حيثما جلست، ولا تجف دموعها، وكانت قد تصيرت من داره إلى البركات الخيال صاحب الفتيان». (ابن حزم، ١٩٩-٢٠٠). ومن الواضح في تلافيف الكتاب انه يضيق بالمرأة دينيا وثقافيا، فيحاول ابراز حالة الاختلاف الثقافية بينها وبين الرجل بصورة لا تقبل اللبس، فكلما مضينا في الكتاب يجري تضخيم دور الرجل إلى درجة تضاءلت معه أدوار النساء فيتمركز الرجل على كرسي المعرفة والعلم والقدرة على السيطرة على النفس والمشاعر فيما تهمش المرأة وتصبح بحاجة أكثر وأكثر إلى منقذها الرجل، وهو بهذا يكون واقعا تحت تأثيرات الثقافة والسائد الثقافي.

وأمكن ملاحظة وقوف ابن حزم عند نساء الطبقة العالية والجواري الاتي يتصل حديثهن برجال هذه الطبقة ولم يعرض لنساء مشرقيات إلا نادرا، ولم يتعرض للمرأة في الطبقة الوسطى أو الدنيا، ولا نجد لديه ولا إشارة واحدة عن المرأة المستعربة أو اليهودية، لخلو الطبقة التي عاش فيها ابن حزم منهن. (مكي: ١٩٧٧، ٢٥٠-٢٥١).

عمد ابن حزم إلى التجديد ليخط لنفسه طريقا يخصه، إذا قلما نجد رجل دين إسلامي يستند إلى آراء وأفكار من هم من غير ثقافته ودينه، وهو هاجس أساسي عنده في التجديد الأدبي وساعدته سعة إطلاعه وثقافته على ذلك، فوظف ما قرأ في رسالته، إذ عمل على الإفادة من التراث العربي والغربي. فقادنا في دهاليز التأريخ لنعود إلى شخصيات قديمة، ليست إسلامية فقط بل من الحضارات الأخرى أيضا استدعاها ابن حزم لتمثل منطلقا فكريا يوافق روح الحدث، فمما أورده من قصص الشخصيات القديمة حديثه عن الرسول d وتعريفه للحب وكذلك ذكر الخليفة الثاني عمر بن الخطاب c (للاستزادة ينظر ١٦٢ من كتاب طوق الحمامة)، وسبب ذكرهم هو معرفته بما تتركه المعطيات الدينية الإسلامية على المتلقي من تأثير عند تصديه لعمل أدبي يستلهم شخصيات دينية، وبتحفيز من الأجواء الفكرية ذاتها، فقد ذكر شخصيات من الحضارات الأخرى، فمنها قصة لأفلاطون مع الملك الذي سجنه ظلما، إذ يقول» وذكر أفلاطون أن بعض الملوك سجنه ظلما، فلم يزل يحتج عن نفسه حتى اظهر براءته، وعلم الملك أنه له ظالم، فقال له وزيره الذي كان يتولى إيصال كلامه إليه: أيها الملك، قد استبان لك أنه بريء فمالك وله؟ فقال الملك: لعمري مالي إليه سبيل، غير أني أجد لنفسي استثقالا لا أدري ما هو. فأدى ذلك إلى أفلاطون . قال: فاحتجت أن أفتش في نفسي وأخلاقي أجد شيئا أقابل به نفسه وأخلاقهما مما يشبهها، فنظرت في أخلاقه فإذا هو محب للعدل كاره للظلم، فميزت هذا الطبع في، فما هو إلا أن حركته هذه الموافقة وقابلت نفسه بهذا الطبع الذي بنفسي فأمر بإطلاقي وقال لوزيره : قد انحل كل ما أجد في نفسي له (ابن حزم، ٩٨). والتفسير هنا يكون بأن إحساسه كأديب دنيوي تجاه هذه الشخصيات يختلف عن إحساسه كفقيه يتحدد مجال فكره وفعله في ضوء الشريعة.

لم يكن الماضي وأبطاله المسرح الوحيد لابن حزم ليسلتهم منها قصصه وشخصياته، بل ذكر لنا قصص شخصيات حية وقت كتابة الرسالة، يقول « أخبرني أبو العافية مولى محمد بن عباس بن أبي عبدة، أن سبب جنون يحيى بن أحمد بن عبَّاس بن أبي عبدة بَيْع جاريةٍ له كان يَجِد بها وَجدًا شديدًا، كانت أمه أباعتها وذهبت إلى إنكاحه من بعض العامريَّات.....وأما يحيى بن محمد فهو حيٌّ على حالته المذكورة في حين كِتابتي لرسالتي هذه، وقد رأيته أنا مرارًا وجالسته في القصر قبل أن يُمتحن بهذه المحنة» (ابن حزم، ٢٤٣). الافت للنظر في هذه القصة من منظور النقد

الثقافي هو إملاءات الثقافة على الأفراد وتتمثل في إجبار أم يحيى ابنها على الابتعاد عن الجواري والتزوّج من العامريات الحرات، لأن الجارية أدنى مرتبة منهن حتى لو أنها أجمل وأحسن خَلقا هذا من جانب، ومن جانب آخر تُظهر القصة مقاومة أفراد المجتمع للعادات والتقاليد ومحاولتهم الخروج إلى مناطق مهمشة ولو كانت هذه المناطق تؤدي إلى الجنون، والجنون في حد ذاته هامشي في مقابل التأسيس للعقل.

المطلب الثاني: أبعاد الشخصية

لكل أديب طريقته الخاصة في رسم شخصياته وأبعادها، فمنهم من يقدم لنا صورة فنية متقنة للشخصية سواء أكانت بأبعاد فيزولوجية أم فكرية أم غيرها، ومنهم من يفسح المجال للشخصية نفسها لتعبر عن أفكارها واتجاهاتها وميولها. وبناءً على ذلك حق لنا أن نسأل عن الأبعاد التي بها رسم لنا ابن حزم شخصياته؟ وهل كان موفقا في ذلك؟ وهل لدراساته السابقة أثر في رسمه لأبعاد شخصياته؟ للإجابة عن هذه السجالات بغية الوصول إلى استقراء المادة النثرية، نقسم الأبعاد التي تعاطاها ابن حزم على أربعة أقسام، وهي:

البعد الفيزيائي: ويقصد به رسم الشخصية من حيث طولها وقصرها ونحافتها وبدانتها ولون بشرتها، والملامح الأخرى المميزة(شريبط: ١٩٩٨، ٣٥) والرسم الخارجي يُسهم في توضيح ملامح الشخصية، وقد رسم لنا صورة مظهرية خلقية لبعض الشخصيات تبين دقة الوصف حتى لكأنها تعطي صورة بصرية تجسيمية قوية ومؤثرة، إذ وصفها بصفات جسدية وصفا مستفيضا فتحدث عن جمالها الخُلقي مطلقا للمسرود له العنان ليتخيل كيفما يشاء في الجمال، يقول في وصف صاحبه ابن أبي عامر» وأما حسن وجهه وكمال صورته فشيء تقف الحدود عنه وتكل الأوهام عن وصف أقله ولا يتعاطى أحد وصفه. ولقد كانت الشوارع تخلو من السيارة ويتعمدون الخطور على باب داره في الشارع الآخذ من النهر الصغير على باب دارنا في الجانب الشرقي بقرطبة إلى الدرب المتصل بقصر الزاهرة، وفي هذا الدرب كانت داره رحمه الله ملاصقة لنا، لا لشيء إلا للنظر منه.» (ابن حزم، (أ)، ١٩٩)، فكأننا بجموع محتشدة هانحن ذا نسمع همهمتهم وهم يرتقبون تجلي ابن أبي عامر كما يتجلى القمر في السماء، هذا البعد يسهم في التأسيس الجمعي للجمال كأرضية ممهدة للوقوع في الحب.

البعد الاجتماعي: الذي» يهتم بتصوير الشخصية، من حيث مركزها الاجتماعي، ثقافتها، ميولها، والوسط الذي تتحرك فيه(شريبط: ١٩٩٨، ٣٥) ولهذا البعد أهمية كبيرة في تبرير سلوكيات الشخصية فضلا عن معرفة الأبعاد الثقافية للكاتب والشخصية على حد سواء، ف « فالثقافة وسيلة خطيرة وفعالة لأنها الأكثر من غيرها قدرة على تثبيت التصورات والقيم والرؤى وترسيخ المرجعيات الفكرية التي تصدر عنها المواقف» (إبراهيم: ط١ ٢٠٠٤، ٣٢٦). فلو قرأنا قول ابن حزم التالي متحدثا عن ابن أبي عامر» كان رحمه الله من أهل الأدب والحذق والذكاء والنبل والحلاوة والتوقد، مع الشرف العظيم والمنصب الفخم والجاه العريض». لتبين لنا أن النبل والانتماء لأهل الأدب والذكاء كانت فضيلة ومن سمات التفاضل بين الناس في المجتمع الأندلسي، إذ هي من الصفات الخُلقية التي نستدل منها على أفضل المكارم عند الرجال التي يفاخر بها وهي من نواتج الثقافة التي يعيش فيها الناس وهم من وضعها، هذا بالنسبة للشخصية، أما بالنسبة للكاتب فإنه بذكره المنصب الفخم والجاه العريض فإنها هنا استجابة نسقية لمخزون ثقافي طبقي عند ابن حزم، فهو حينما ركن إلى هاتين الصفتين فإنه حملهما مخزونه الفكري والثقافي في تميز أصحاب الطبقة العليا عن سائر الخلق وتضخيم قيمتهم المعنوية مقابل قيمة الآخر الدانية، أو لنقل إنه أسس للطبقة الأرستقراطية وهمش الطبقة العاملة الفقيرة دون أن يشعر، وهذا من فعل الثقافة في اللاوعي الفردي.

البعد النفسي: وهم ما يتعلق بالجانب السايكولوجي من الإنسان، إذ « يهتم القاص خلال هذا البعد بتصوير الشخصية من حيث مشاعرها، وعواطفها، وطبعائها، وسلوكها، ومواقفها من القضايا المحيطة بها» (شريبط: ١٩٩٨، ٣٥)، ويتم التمثيل عن البعد النفسي أو السايكولوجي بطرق عدة منها مناجاة النفس والمونولوج الداخلي الذي يُعد رصدا لتفاعل النفس مع حدث ما، ومنها بتبيان ما تشعر به الشخصية تجاه الأشخاص أو الأشياء، إذ إن ما يدور في العالم الداخلي للشخصية من أفكار وصراعات وأحلام مرتبط بما يدور في خارجها ومنعكس عنه. ولعل لاهتمامه بالدراسات النفسية نصيب من تطرقه لهذا البعد، فقد أفاد من تلك الدراسات في قراءة بواعث الأعمال وخلفيات السلوك، لنقرأ قول ابن حزم في باب طي السر عن تمكن الحب وعدم القدرة على التحكم بالجوارح «وإني لأعرف بعضَ من امتُحن بشيء من هذا فسكن الوجدُ بين جوانحه، فرام جَحْده إلى أن غَلظ الأمر، وعُرف ذلك في شمائله مَن تعرَّض للمعرفة ومن لم يتعرض. وكان مَن عَرض له بشيء نَجَهَه وقَبَّحه، إلى أن كان مَن أراد الحظوة لديه من إخوانه يُوهمه تصديقَه في إنكاره، وتكذيبَ من ظن به غير ذلك، فسُرَّ بهذا. ولعهدي به يومًا قاعدًا ومعه بعضُ من كان يَعرض له بما في ضميره، وهو ينتفي غاية الانتفاء، إذ اجتاز بهما الشخص الذي كان يُتهم بعلاقته، فما هو إلا أن وقعت عينه على محبوبه حتى اضطرب وفارق هيئته الأولى، واصفر لونه، وتفاوتت معاني كلامه بعد حُسن تثقيف، فقطع كلامَه المتكلمُ معه؛ فلقد استدعى ما كان فيه من ذكره، فقيل له: ما عدا عمَّا بدا. فقال: هو ما تظنون، عذَر من عذَر، وعذَل من عذَل.» (ابن حزم، ١٤٥). الحدث في هذه القصة من مألوف الواقع ،لكن بكلمات موجزة كشف لنا ابن حزم عن ذات الشخصية وطبيعة تفكيرها وهمومها العاطفية، ثم يقفل النص بذكاء ببيان تداعيات الحب وما تركه من آثار مؤذية مدمرة أوصلت الشخصية إلى عدم اكتراثه برأي من حوله سواء أ عذروه أم عذلوه.

وأهمية هذا البعد تكمن في كون الحب غريزة مؤسسة في الذات الإنسانية مترسخة فيها، لكن بشروط العادات والتقاليد، وحدود الثقافة الجمعية جعلت هذه الغريزة هامشية محصورة في زاوية ضيقة، فجاء ابن حزم أخرجها وأسس لها بناءً على بعدها الإنساني الفطري.

والبعد الرابع الذي حددّه النقاد للشخصيات هو البعد الآيدولوجي، ولم نتطرق إليه لحداثته وحداثة المصطلح الذي يرتبط بالأفكار الحديثةالتي لم تكن موجودة في زمن ابن حزم.

المطلب الثالث: المعطيات الثقافية لاختيار تلك الشخصيات

لو أمكننا استنطاق النصوص وتوليد المعاني عبر النقد والتقويض، لأمكننا تكهن الأسباب التي تهيأت لابن حزم حتى أختار شخصياته بتلك الاستراتيجية الفنية التي جدد بها الكتابة الأدبية في الحب، فهي من جهة شخصيات حقيقية وليست مبتكرة أو ورقية، ومن جهة أخرى فإن الشخصية تحيل على النص الثقافي بأبعاده المتعددة. فابن حزم لم يختر شخصياته بشكل عشوائي، وإنما انتقى مواقف وأحداث وشخصيات تاريخية ومعاصرة له تساير طبيعة الواقع الحاضر وتعبر عنه، ثم نسج حولها أفكاره ومحمولاته الثقافية النسقية من لا وعيه و»الدلالات النسقية ترتبط في علاقات متشابكة نشأت مع الزمن لتكون عنصرا ثقافيا آخذ بالتشكل التدريجي إلى أن أصبح عنصرا فاعلا، لكنه وبسبب نشوئه التدريجي تمكن من التغلغل غير الملحوظ وظل كامنا هناك في أعماق الخطابات وظل ينتقل ما بين اللغة والذهن البشري فاعلا أفعاله من دون رقيب نقدي لانشغال النقد بالجمالي أولا ثم لقدرة العناصر النسقية على الكمون والاختفاء» (الغذامي: ط٣ ٢٠٠٥، ٧٢)، والأسباب هي:

مـما حفـز ابـن حـزم عـلى الاهتـمام ببعـض شـخصياته شـعوره بوجـود شـبه بينـه وبـين بعـض مـن يترجـم لهـم أو يذكـر قصصهـم، عـلى أن درجـة الشـبه والتوافـق تختلـف مـن شـخصية إلى أخـرى، وبالتـالي فهـو إذ يكشـف طريقـة تفكيرهـم فإنـه يعمـد لتقديـم مثـال إنسـاني، إذ نـرى الأنـا الحزميـة بـارزة في نصوصـه « والأنـا هنـا مفعمـة بقيـم سـامية، والآخـر يفتقـر إليهـا، الأنـا فاعـل والآخـر منفعـل، و الأنـا أنتجتـه المركزيـات الثقافيـة ويتـم تعميمهـا وفرضهـا اسـتنادا إلى السـجال وليـس التجربـة والمعاينـة والإكتشـاف المبـاشر». (ابراهيـم:ط١ ٢٠٠٤، ١٥)، فكأنـه يقـول لنـا أن هـذا النـوع مـن التفكـير يجـب أن يُحتـذى بـه. أو بعبـارة أخـرى فهـو يقـدم نفسـه بتقديمهـم.

اتـكاؤه عـلى الذكريـات الشـخصية والأحـلام كان تحقيقـا لرغبـة النفـس في الخلـود المعنـوي بعـد العمـر الإنسـاني المحـدود بواسـطة الأثـر الأدبي، وذكـره تنقلاتـه المتكـررة وعـدم اسـتقراره في محاولـة منـه للتغلـب عـلى أمكنـة الدولـة الكبـيرة التـي تنكـرت لـه.

ذكـره الشـخصيات السياسـية والدينيـة الرفيعـة واماطـة النقـاب عـن بعـض جوانبهـا المجهولـة فرصـة ثمينـة لفقيهنـا لتحقيـق ذاتـه لمكانـة هـذه الشـخصيات منـه وإنمـا أعجبـه في قصصهـم روحهـم الثائـرة ومواجهتهـم السـائد الثقـافي ولتفكيـك التبايـن بينهـم وبـين غيرهـم.

لعـل دراسـة الجوانـب العاطفيـة مـن حيـاة المنتمـين للطبقـة الأرسـتقراطية كانـت فرصـة للتخلـص مـن عقـدة ذاتيـة لوقوعـه في الحـب، فكأنـه يقـول لنـا هـؤلاء مـن هـم أجـل منـي مكانـة ومقامـا وأكـثر حزمـا قـد عشـقوا وعُشـقوا مـع اسـتبعادنا كـون ابـن حـزم مـن المبتلـين بالعقـد النفسـية، لكـن لا نسـتبعد كـون هـذا دافعـا مـن الدوافـع القويـة في ذكـره الجانـب العاطفـي للخلفـاء والفقهـاء.

جـاء الكتـاب نابعـا عـن حاجـة ابداعيـة ومرحلـة مـن الحـب ناضجـة مكتملـة تبحـث عـن بدائـل للطريقـة الكلاسـيكية التـي قُيـدت بهـا المشـاعر وحُـصر بـه الأشـخاص الذيـن يُبـاح لهـم التعبـير عـن عواطفهـم، ففـي السـابق كان الحـب عاطفـة نخبويـة مقتـصرة عـلى فئـة معينـة، فالقـاضي والخليفـة ورجـل الديـن أبعـدوا عـن تلـك الفئـة قـسرا بأمـر مـن المؤسسـة الثقافيـة التـي تُبيـح مـا تشـاء لمـن تشـاء، جـاء ابـن حـزم وخـرق نواميـس الكتابـة ورفـع الحجـاب عـن الجانـب العاطفـي لتلـك الشـخصيات.

الآثار السلبية والايجابية للحب

" توجـد عاطفـة واحـدة تشـبع حاجـة الإنسـان إلى أن يوحـد نفسـه مـع العـالم وأن يكتسـب في الوقـت ذاتـه الإحسـاس بالسـلامة والفرديـة، وذلكـم هـو الحـب» (فـروم: ٢٠٠٩ ط١، ١٣٧). إذا كان الحـب بهـذا القـدر مـن الأهميـة، فكيـف يبـدأ الحـب؟ ومـن أيـن؟

تُعـد نظريـات فرويـد عـن الطفولـة والجنـس هـي الجـذور الأساسـية لتفسـير العلاقـات الغراميـة للأشـخاص البالغـين، إذ كان يفـسر قـدرات الشـخص العاطفيـة وفقـا لتجـارب طفولتـه، وهـو بذلـك يضـع مسـؤولية نجـاح العلاقـة أو فشـلها عـلى عاتـق الشـخص ونشـأته وطفولتـه، أمـا في الوقـت الحـالي فـإن للبيئـة والمؤسسـات الثقافيـة السـلطوية نصيبـا مـن تلـك المسـؤولية، تقـول عالمـة الاجتـماع إيفـا أيلـوز « إن تقلبـات حياتنـا العاطفيـة ومآسـيها تتشـكل وفـق ترتيبـات مؤسسـاتية، فالخطـأ لا ينتـج عـن الفـرد بـل مـرده مجموعـة مـن التوتـرات الاجتماعيـة والثقافيـة والتناقضـات التـي جـاءت لهيكلـة الأنفـس والهويـات الحديثـة» (أيلـوز: ٢٠٢٠ ط١، ١٨). مـما يعنـي أن الشـخص يكـون مسـيرا في بعـض قراراتـه وخياراتـه وإن كانـت بنسـب مختلفـة لكنهـا تؤثـر في قابـل أيامـه. فللنسـيج الاجتماعـي الـذي يعيـش فيـه الفـرد دور ذو أهميـة في موضـوع الحـب واختيـار المحبـوب أو المعشـوق، والبيئـة بدورهـا تخضـع للمفاهيـم السـلطوية الثقافيـة التـي تبيـح مـا تـراه مناسـبا

وفق وجهة نظرها وترفض ما تراه غير مناسب، أو لنقل إن ما يكتسبه الإنسان في مجتمعه هو ما يحدد له هويته القومية التي تطبع اختياراته في الحياة. وابن حزم لم يكتف ببيان الجانب المقبول من آثاره الحب وترسباته بل ذهب أبعد من ذلك محاجا أن للحب آثارا تصل إلى الهلاك ، سواء أكان هلاكا جسديا أم نفسيا. بدءا من الخبرات القائمة على التجربة الذاتية والمعاناة الشخصية وانتقالا إلى ملاحظة الآخرين والإدلاء بأخبارهم.

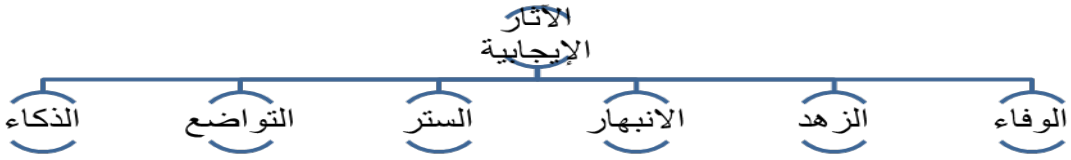

والآثار تكون على قسمين: إيجابية وسلبية، نبدأ بالآثار الإيجابية وهي:

وأهل الحب ليسوا سواء في تعاطيهم مع تجاربهم العاطفية، فمنهم من يجد في الحب فردوسه المفقود، فتسكره فرحة اللقاء ويرتوي من كؤوس الوصل ما شاء، وهؤلاء قليلون، يقول ابن حزم عن نفسه» وعني أخبرك أني ما روِيتُ قط من ماء الوصل ولا زادني إلا ظمأً. وهذا حكم مَن تداوى برأيه وإنْ رَبَّهُ عنه سريعًا. ولقد بلغتُ من التمكُّن بمن أُحب أبعد الغايات التي لا يجد الإنسان وراءها مرمًى، فما وجدتُني إلا مستزيدًا، ولقد طال بي ذلك فما أحسست بسآمةٍ ولا رهقتني فترة. وقد ضمَّني مجلس مع بعض من كنتُ أحب، فلم أُجل خاطري في فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصرًا عن مرادي، وغير شافٍ وَجْدي، ولا قاضٍ أقلَّ لُبانة من لباناتي، ووجدتُني كلما ازددتُ دنوًّا ازددتُ ولوعًا، وقدحت زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعي» (ابن حزم، ١٨٤). في نسق سردي متمايز قدم لنا كما كبيرا من التحليل الذاتي، فأسس للجانب العاطفي في حياة الفقيه باذابة المفاهيم السلطوية التي ترى في الفقيه كاهنا متنسكا عن الحب. كما أن الحب هو وحده القادر على إزالة الفوارق الطبقية في المجتمعات التي تستفحل فيها الهوية الثقافية وتهدد فيها الوجود الفردي، « وأحدثُ ذلك ما شاهدناه بالأمس من كلف المظَفَّر بن عبد الملك بن أبي عامر بواحدة، بنت رجل من الجبائين، حتى حمله حُبُّها أن يتزوجها، وهي التي خَلف عليها بعد فناء العامر بن الوزير عبد الله بن مَسلمة» (ابن حزم، ٩٢)، فها هو ذا ابن الحاجب يعشق فتاة من العامة ويؤهل المجتمع بما يستجيب لطبيعة الحب وسلطانه على القلوب.

أما تأثيراته السلبية فجمة، تعكس لنا حال الحب في المجتمع الأندلسي آنذاك واستفحاله وخضوع العقل له، ومن تلك التأثيرات:

في أغلب الأحيان التضاد بين المجتمع والحب هو الذي يشرع المعاناة الناتجة عن الأخير، فمثلا الفوارق الطبقية وعدم جواز إبداء المشاعر تجاه شريحة معينة في المجتمع تؤدي إلى هلاك المعشوق سواء أكان جسديا و « مثل هذا قُتل أحمد بن مُغيث، واستئصالُ آل مُغيث والتَّسجيل عليهم ألَّا يُستخدَم بواحد منهم أبدًا، حتى كان سببًا لهلاكهم وانقراض بيتهم، فلم يبق منهم إلا الشريد الضال. وكان سببُ ذلك تغزُّلَه بإحدى بنات الخُلفاء. ومثل هذا كثير» (ابن حزم، ١٤٧) .أم كان هلاكا نفسيا يدخل صاحبه دائرة الأمراض النفسية بسهولة، فعندما لا تسير علاقة الحب على ما يرام، تظهر مضاعفات نفسية جسيمة لتجربة الوقوع في الحب على نحو قاس، فالحب قد يُفقد الاتزان العقلي بحكم كونه تجربه قوية مؤثرة.

والعزف عن النساء تارة وعن الحب تارة أخرى من شيم المجروحين في الحب، فما أن يفارق المحبوب محبوبه لأي سبب كان حتى تنفر روحه عن النساء أو يصقل شخصيته خوف الوقوع في التجربة ذاته، فيمارس نوعا من جلد الذات، فابن حزم نفسه حرم على نفسه أو بعبارة أدق حب زوجته نعم حّرم عليه الوقوع في الحب مرة أخرى بعد وفاتها و» لقد أقمتُ بعدها سبعةَ أشهر لا أتجرَّد عن ثيابي، ولا تَفتر لي دمعة على جُمود عيني وقلة إسعادها. وعلى ذلك فوالله ما سلوتُ حتى الآن، ولو قُبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف، وببعض أعضاء جسمي العزيزة عليَّ مسارعًا طائعًا، وما طاب لي عيش بعدها، ولا نسيتُ ذِكرها، ولا أنِسْتُ بسواها. ولقد عَفَّى حُبي لها على كل ما قبله، وحرَّم ما كان بعده» (ابن حزم، ٢٢٤)، فيحرم على نفسه ما حلله الله له لا لشيء سوى لموت من أحب، وما كان تصنعا لكن طبعا حقيقيا واختيارا. وليس هذا بالمستغرب إن كان ابن حزم الفقيه ينقل لنا قصص ارتداد رجالات الدين عن ديانتهم وتركهم الإسلام في سبيل الهوى، فهل نقل لنا ذلك ليبين لنا أن ترك الحب أهون من ترك الدين؟ أو أنه لم يأت بالشيء الغريب طالما هناك من يترك دينه في سبيل هواه؟ والجواب على هذا السجال هو أن هنا ابن حزم الأديب يعتلي المركز ويدفع بشخصية الفقيه جانبا لعدم تتطابق التقييمات العقلانية للفقيه مع توجه المشاعر والعاطفة للأديب، وهذا من غير العادة في المجتمع أن يبقى الرجل لهذه المدة الطويلة في عزاء زوجته لكن ابن حزم هنا بصدد التأسيس للحب كمفهوم مركزي في الحياة.

ومن شخصياته من قابلوا أناسا فأصبحوا عرضة لأهوائهم ومنتهى استحسانهم لصفات كامنة فيهم، وما فارقهم استحسان تلك الصفات ولا بان تفضيلها على ما هو أفضل منها في الخليقة، ولا مالوا إلى سواها، ومنهم من مضى

إما بسلو أو بين أو هجر أو بعض عوارض الحب، ومنهم من فارقوا الدنيا وانقضت أعمارهم حنينا منهم إلى من فقدوه، (ابن حزم، ١٢٩)، «وأعرف من أتى ليُودِّع محبوبَه يوم الفِراق فوجده قد فات، فوقف على آثاره ساعةً وتردَّد في الموضع الذي كان فيه ثم انصرف كئيبًا متغيِّر اللون كاسف البال، فما كان بعد أيام قلائل حتى اعتلَّ ومات» (ابن حزم، ٢٢٢٩).

ومما سبق يتبين لنا أن الكتاب ذا أطروحة واضحة وموقف ثابت تبشر به وتحاول نشره بين الناس والإقناع بصوابه وصلاحه لحياة الفرد والمجتمع، وليست الشخصيات التي ذكرناها إلا انعكاسا وتمثيلا لهذه الأطروحة، وما اعتمد من شخصيات في دراسته فهم أناس لا يتهمون في تميزهم ولا يخاف عليهم سقوط في معرفتهم ولا اختلال لحسن اختيارهم ولا تقصير في حدسهم، شخصيات عديدة منها الخيرة ومنها الشريرة، حيث يمثل بعضها الشر الموجود في الواقع بصنوفه المتعددة من خيانة وفجور وكذب والارتداد عن الدين ويمثل البعض الآخر الخير والوفاء والمشاعر الصادقة.

نتائج البحث

اتكاء ابن حزم في نثره وشعره على أنماط عديدة من الشخصيات المستقاة من التراث، والتي أسهمت بدور كبير في تنمية السياق، ولم يقتصر على التراث الإسلامي بل أفاد من تراث الأديان الأخرى.

لم يكن اختياره لشخصياته عشوائيا ولا مصادفة، بل لأسباب فنية كامنة وراء كل شخصية تتمثل في أنها تمثل جسرا بين الكاتب والناس، أي أنه يحقق التواصلية والاستمرارية مع المتلقين عموما.

الجانب الآخر في توظيفه لتلك الشخصيات تتمثل في كونها بمثابة معادل موضوعي لابن حزم الكاتب الذي أنفق حياته وكرسها للجدال والنقاش والحدية والقوة والشراسة، إلا أنه يرضخ لطلب صديقه فيكرس عقله وعلمه لإرادة الصديق ونيل رضاه فيكتب في الحب الموضوع الرقيق المرهف.

لا يقدم صورة الفقهاء ولا الخلفاء ولا باقي الشخصيات العامة ضمن الاشتراطات العرفية للمجتمع بل يقدم فيه الوجه الآخر لهؤلاء، الوجه الذي بقي بعيدا عن الدرس والكتابة مدة زمنية غير قليلة.

نرى الأنا عند ابن حزم وقد استفحلت وجعل منها مركزا، فما وافق طبعه فهو الحق وما خالف طباعه لا يتقبله بل ويعجب من تقبل غيره لها، فمثلا فقيهنا لا يؤمن بالحب من النظرة الأولى ولا يتقبله من غيره.

ابن حزم الأديب هو امتداد لنسق الفحولة الجاهلية التي قال عنها الغذامي (للاستزادة انظر النقد الثقافي للغذامي ص٩١ وما بعدها)، فهو لا يرى أن أحدا يمكنه أن يأتي بمعان أحسن منه.

ربط في قصصه بين الماضي والحاضر، ومزج بين الأمل واليأس والإحباط والطموح ولم يكن ذلك إهتزازا أو اضطرابا في نظرة الأديب بقدر ماكان إدراكا منه بأن الحياة مليئة بالتناقضات فوجب على الإنسان أن يعيشها دون أن يتخلى عن روح التحدي. كما نجده في كثير من الأحيان يتبرم من الحاضر ويحن للماضي، ويمكن أن نعد ذلك نظير الحلم بالغد فكلاهما ينتزع الأديب من الواقع المرير.

شخصية المرأة في طوق الحمامة مخالفة للسائد الثقافية، فهي التي تحب وتتغزل وتعلن عن رغباتها مثل الرجل.

نرى تبادل المراكز بين الفقيه والأديب حاضرا في أغلب موضوعات الرسالة، فمثلا ابن حزم الأديب يفضل من النساء الشقراوات ويسم أصحاب البشر السوداء بأنهم أبعد خلق الله عن كل حكمة وبألوانهم وصفت ألوان أهل جهنم لكن أليس الفقيه يُدرك أن الأفضلية عند الله للأتقى وليست للألوان؟

Abstract

Tawq Al-Hamamah is a book that written by Ibn Hazm on love and for love. It is a literary book that combines poetry and prose, And it contain stories. He often cites a story appropriate to the topic of the door and begins with the word (khabar), to tell us a story that he lived through himself or transmitted from trustworthy people, and in which he is one of the most responsive to the feelings of others. How did Ibn Hazm choose his characters, and does the cultural heritage have a role in that? How does a person fall in love? Do we fall into it, or do we walk to it with steady steps? What does this have to do with customs and traditions?

key words:The cultural dominant, Ibn Hazm, Tawq Al-Hamamah characters

المصادر والمراجع

إبراهيم، عبد الله (٢٠٠٤ ط١)، بحث في نقد المركزيات الثقافية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ابن حزم، علي بن أحمد، (١٩٨٧ ط٢)، رسائل ابن حزم، ت: إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

أحمد، شريبط(٢٠٠٨)، تطور البنية الفنية في القصة الجزائرية المعاصرة، منشورات إتحاد الكتاب العرب.

إريك، فروم (٢٠١٠ ط١)، المجتمع السوي، تر: محمود منقذ الهاشمي، مكتبة التنوير.

عباس، إحسان(د.ت، ط٨)، تاريخ الأدب الأندلسي، دار الثقافة بيروت لبنان.

الغذامي، عبد الله (٢٠٠٥ ط٣)، النقد الثقافي، المركز الثقافي العربي.

إيلوز، أيفا، (٢٠٢٠ ط١)، لماذا يجرح الحب، تر: خالد حافظي، صفحة سبعة للنشر والتوزيع.

مكي، الطاهر أحمد، (١٩٧٧)، دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة، مكتبة وهبة مصر.

نجم، محمد يوسف (١٩٥٥)، فن القصة، دار بيروت للطباعة والنشر.